

عاشوراء العامليّة: الحزن «الكلاس»

مجتمع | زينب مرعي | الخميس 22 تشرين الثاني 2012

تصل السيارات الفارهة الواحدة تلو الأخرى إلى باحة الملعب. كلّما دخلته واحدة جديدة، هرع السائق ليفتح الباب لـ «معلمه» الذي يضبط هندامه وهو يخطو خارجها. يتوجّه «المعلم» إلى داخل الخيمة بينما ينهمك السائق في إيجاد المكان المناسب لركن السيارة. تجهد الأجهزة الأمنية في الخارج لتوفير الحماية للوافدين. هكذا، يبدو ملعب ثانوية العامليّة في رأس النبع خلال أيام عاشوراء.

هناك طرق كثيرة للوصول إلى الحسين. منهم من يقصده سيراً على الأقدام إلى كربلاء حيث مرقد الإمام، ومنهم من يقصده بـ «اللّيموزين» في الخيمة العاشورائية التي تنصب في ملعب العامليّة خلال الأيام العشرة الأولى من محرم.

الخيمة ليست كغيرها من الخيم. هي الوحيدة في بيروت ربما، التي لا تتصاعد منها التأوهات وأصوات البكاء على الحسين. روّادها لا يجلسون على الأرض بل يعتلون الكراسي. هذه خيمة «الرّسميين». أي الخيمة التي يقصدها ممثل رئيس الحكومة وقائد الجيش إلى جانب النوّاب والوزراء والقضاة والسلك العسكري، وزوجاتهم، من الشيعة للاستماع إلى السيرة الحسينيّة، ما يجعلها أيضاً الخيمة «الرسميّة» التي ينقل منها «تلفزيون لبنان»، مباشرة، وقائع اليوم العاشر.

لا تنتمي ندى إلى هؤلاء، لكنها تحضر يومياً المجلس العاشورائي في خيمة العاملية لأنها تسكن المنطقة. تميل برأسها يميناً ويساراً وهي تقسم أنّه لا أحداً في تلك الخيمة العاشورائيّة يبكي لدى سماعه السيرة الحسينيّة، «هؤلاء القوم لا يعرفون كيف يبكون»، تقول. تنتقد النساء اللواتي يحضرن ذاك المجلس، والـ «بوفيه» المفتوح من البسكويت والراحة وكعك العباس. إلى جانبها تجلس نساء لا يشبهن الجمهور العاشورائي عادة. معظمهنّ تخطين الخامسة والخمسين من العمر، يضعن منديلاً أبيض شفافاً على رؤوسهنّ، بعناية، فوق «الشينيون». تنزعج ندى المتديّنة، لدى ذكر زوجة خالها، العميد المتقاعد في الجيش، التي «لم تقف يوماً على سجادة صلاة»، لكنها ترتاد تلك الخيمة سنوياً، لتستمع إلى المجلس الحسيني.

في الخيمة التي تنصبها «الجمعية الخيرية الإسلامية العاملية» تتجاور فئتان من الناس. سكّان المنطقة العاديون الذين يتوقّعون الاستماع إلى مجلس عاشورائي عادي من جهة، و«الرسميّون» وسكّان المنطقة الشيعة القدامى، ومعظمهم من الميسورين، من جهة أخرى. من أجل هؤلاء، تقدّم العامليّة، بحسب مدير مكتب الجمعية محمد حمادة، مجلساً «بعيداً عن المبالغات والغلوّ، كما عن التطرّف والإسقاطات، يركّز فقط على معنى عاشوراء. لا لطم هنا ولا نواح أو بكاء، بل نروي السيرة الحسينيّة بموضوعيّة وعقلانيّة غير مستفزّة، آخذين في الاعتبار البيئة التي نعيش فيها». غنيّ عن القول هنا إنّه لا مسيرة تنبثق عن هذا المجلس. فأهل المنطقة «العاديون» يتوجّهون إلى الضاحية في العاشر من محرّم للمشاركة في المسيرة، بينما يستمع «الرسميّون» إلى المجلس

ليقودهم من بعدها سائقوهم إلى وجهاتهم التالية. هنا يضيف حمادة إنّ «المسيرات دخيلة على السيرة الحسينيّة وهي من العادات الإيرانيّة».

لا يبدو المشهد في خيمة العامليّة، بهذه الغرابة إذا ما تذكّرنا تاريخ مؤسسها رشيد بيضون. الرجل أطلق «الجمعية الإسلاميّة الخيرية العاملية» عام 1923 وانبثقت عنها مجموعة مدارس ومستوصفات، لمساعدة أبناء الطائفة الشيعية، بالدرجة الأولى، على الارتقاء بمستواهم العلمي. ثم بات منذ عام 1937 نائباً، ثم وزيراً في ثلاث محطات أخرى مختلفة. يحكي كبار السنّ اليوم عن المنح والمساعدات التي كان يقدّمها بيضون ليتعلّم «أبناء الشيعة» في مدارس العامليّة، وهي بدأت بإعطاء الدروس عام 1928 في بناء متواضع مؤلّف من غرفتين خشبيتين وغرفة حجريّة جهّزت لاحقاً لتصبح مدرسة ابتدائيّة، ثم في المبنى الرئيسي اليوم المعروف بـ «ثانوية العاملية» في رأس النبع الذي افتتح عام 1947، ثم أضيف إليه عام 1967 مسجد الصفاء، الذي حمل اسم الحاج أمين صفا، الذي ساعد على تشييد المسجد. وبيضون هو أوّل من نصب خيمة عاشورائيّة في بيروت عام 1929.

لم يخف بيضون يوماً أنّ همّه هو مساعدة ودعم طائفته «المهدورة حقوقها»، في ذاك الوقت. فأرسل الى عصبة الأمم عام 1938 «برقية احتجاج على هضم حقوق الشيعة في الجمهورية اللبنانية»، لكن سرعان ما أتى الجواب على برقيته بأنّه «لا شباب مثقّفاً في الطائفة». يومها، نشر الرجل في جريدة «النهار» نداءً يطلب فيه من «الشباب الشيعي المثقّف» أن يوافوه بأسمائهم ونوع شهاداتهم «لدحض ادعاءات جنيف». في العام ذاته، قام بيضون بأول رحلة له إلى أفريقيا كي يجمع الأموال من المغتربين لجمعيته. تتذكّر الحاجة أم محمد هذه الرحلة. تستعيد مشهد الآلاف الذين احتشدوا لاستقبال بيضون لدى عودته من رحلته، والرمل الأحمر الذي فرش يومها من أجله، من السوديكو إلى رأس النبع. رمل أحمر ونخيل وزّع على جانبي الطريق، ولافتات ترحب بعودة «الزعيم» الذي حمل على الأكفّ.

لم يكن لينافس بيضون على الزعامة في ذاك الوقت سوى الرئيس أحمد الأسعد، أو بالأحرى كان بيضون ينافس الأسعد على زعامته. تذكر الحاجة أنّه ما التقى شباب «منظمة الطلائع» التي أسّسها بيضون عام 1944 ومناصرو «النهضة» أو «الأسعديّة» إلّا كان العراك ثالثهما. ورغم أنّ بعض كبار السنّ يقرّون بأنّ «زعامة» الأسعد كانت أكبر من «زعامة» بيضون إلّا أنّهم يبدون ميلاً واضحاً إلى بيضون.

فبالنسبة إليهم أعطى الأخير الناس أكثر من الأسعد الذي «كان يهمّه شخصه وعائلته بالدرجة الأولى». لم يرزق بيضون أولاداً ليترك لهم إرثه، هو الذي وضع في إصبعه خاتم السيد محسن الأمين الذي دعا له بالبنين والرفاه. رضي بنصيبه وعاد ليدعم أبناء الطائفة، فافتتح في الكليّة العاملية عام 1953صفّي الرياضيات والفلسفة مجاناً للتلامذة جميعاً. اشتهر بيضون بسعيه إلى تعليم أبناء طائفته، كما بالصفعة التي وجّهها إلى جندي سنغالي أمام البرلمان كان يحاول منعه من دخول المجلس لاجتماع وضع علم جديد للبنان المستقلّ عام 1943، ثم بإدخاله النائب سعدي المنلا مع الرئيس صائب سلام من شباك المجلس ليشارك في الجلسة.

من يدخل الخيمة العاشورائيّة اليوم، يرَ أنّ معظم الجالسين في الصفّ الأول فيها أو الأخير هم من متخرجي العاملية. فالثانوية خرّجت النخب الشيعية، كما الناس «العاديين» مثل ندى. باختصار هناك جيل كامل يحنّ دوماً إلى أيام العامليّة وصاحبها كلّما نظروا إليها.

موسى الصدر في العامليّة

اكتسبت «الجمعية الإسلامية العاملية»، والثانوية العامليّة لاحقاً، شهرتها في الأساس من صاحبها النائب والوزير رشيد بيضون، لكنّ تاريخاً مهماً طبع عمر الثانوية العامليّة، هو تاريخ اعتصام السيد موسى الصدر، في مسجد الصفا، في 27 حزيران 1975، وإضرابه عن الطعام احتجاجاً على الحرب الأهليّة و«إلى أن تتجاوز البلاد الأزمة وإلى أن تخرس أصوات المدافع». في «ثانوية العامليّة» أيضاً ملف يحمل اسم الإمام. في هذا الملف تجد صوراً من الاعتصام، تجمع الإمام بعادل عسيران وغسان تويني ورياض طه، كما تجد عقد العمل الذي وقّعه الإمام مع الثانوية لتعليم الدين في صفوف البكالوريا من السنة الدراسية 1960-1961 إلى 1964-1965. في العقد تقرأ أن السيد موسى كان يتقاضى مبلغ 1200 ليرة سنوياً مقابل عمله، كما تجد في صفحات الملفّ رسالة الاستقالة التي كتبها الإمام بخطّ يده للثانوية، معبّراً فيها عن أسفه، لكنّ مشاغل وواجبات أخرى سرقته من دوره الذي كان يؤدّيه في ثانوية العامليّة.